ثالث ثلاثة فى الضبط والاتقان (*)

بقلم **الاستاذ مولاى التقى العلوى**

اثناء القرن الحادى عشر الهجرى بدات تدور على السنة الناس فى الاوساط العلمية مسالة الحفاظ الثلاثة التى رفعت البعض منهم الى اعلى عليين وهوت بالبعض الآخر منهم الى اسفل سافلين دون حجة ولا برهان ونصها : حفاظ المغرب فى وقتنا ثلاثة حافظ ضابط ثقة وهو احمد ابن يوسف الفاسى (971 — 1021 هـ) وحافظ ضابط غير ثقة وهو ابو العباس احمد المقرى ؟ ! (— 1041) وحافظ غير ضابط ولا ثقة وهو ابو محمد عبد الله بن على بن طاهر الحسنى !!! ومنذ ذلك الحين الى يومنا هذا والناس يدورون حول هذه المسالة ويرددون صداها فى كتاباتهم واحاديثهم نظما ونثرا بمناسبة او بدونها · والملاحظ ان المؤرخين الاولين وحتى الكتاب المعاصرين لم يتوجه اهتمامهم فى هذه المسالة الا لشيئين اثنين فقط وهما هل ينسب هذا الحكم الذى لا معقب له فى نظرهم الى الشيخ محمد بن ابى بكر الدلائى رفيق ابن طاهر فى الدراسة ؟ او ينسب الى غيره؟ اما صحة هذا الحكم فى حد ذاته او عدمها فلم يتجرا اى واحد منهم فيما نعلم على اقتحام بابه المغلق · مع أن المنطق يقضى بأن توجه العناية والاهتمام الى المقول لا الى القائل · لان ذلك يبعدنا عن الزلل ويجنبنا السير فى الطرق التى تؤدى الى تقديس الهياكل وعبادة الاشخاص وتكثيف الحجب امام الرؤيا الصحيحة لهذا كله توخينا ان نعيد النظر فى المسالة بمنظار جديد · ففيما يرجع الى ابى العباس احمد المقرى فالامر فى غاية ما يكون من البساطة وعدم التعقيد ولا حاجة بنا فى نقض هذا الحكم المتعلق به الى كثرة الجحاج واستقصاء الملابسات ذلك ان انتاج هذا العلامة الكبير ما يزال حيا يتحدى الزمان · وبين ايدى الناس اليوم منه مقدار كاف للحكم له او عليه فما على من اهتم بذلك الا ان يقابل فيما بين النصوص الموجودة فى كتاب نفح الطيب او غيره من انتاجه الغزير · وبين ما هو موجود من الكتب التى انحدرت منها تلك النصوص ليتاكد من الثقة الحميدة والامانة والنزاهة والضبط وجميع الخصال الحميدة التى كان يتحلى بها هذا الحافظ الجليل · وليعلم علم اليقين تلك السموم المبطنة والنوايا الخبيثة التى يحملها هذا التقسيم الفاسد والحكم الجائر الذى ما تزال الالسنة تلوكه الى يوم الناس هذا لسوء الحظ · والغريب فى الامر ان الغيرة لم تحرك اى واحد من اصحاب الابحاث الحرة والنقد النزيه الذين يستفيدون من انتاج ابى العباس فى المشرق والمغرب لكى يرد

(*) تابع لما نشر فى العدد الاول من هاته المجلة فى ترجمة الحافظ بن طاهر الحسنى ص 50 ·

الحق الى نصابه وينتصف لهذا الحافظ المملاق والعبقرى الفذ الذى لا يأتى الزمان بمثله ·

واما بالنسبة لصاحب الترجمة الذى ضاع انتاجه كله ولم يصل الينا منه اى شىء يمكن لنا ان نعتمد عليه فى هاته الدراسة فلا محيد لنا من الاستضاءة بمعرفة آراء بعض تلامذته الذين هم اعلم الناس به من غيرهم أو تلامذة تلامذته ومن فى طبقاتهم من المؤرخين المتصلين بعصره · والحق أن كتابة هاته الجماعة تتفق على وصف صاحب الترجمة بالحفظ والضبط والثقة والامانة والزهد وغير ذلك من الاوصاف الحميدة التى ارغمتصاحب فهرس الفهارس على أن يقول فى ترجمة هذا الشيخ انها ترجمة طويلة وطنانة (1) ·

من اقدم تلامذة ابن طاهر واطهرهم ذلكم الشيخ الامام الزاهد الورع المتبتل السيد احمد وعلى السوسى الهشتوكى البوسعيدى « الصنهاجى » (990 — 1046) الذى كان يزن اقواله وأعماله وزنا بلغ الغاية والدقة فى التحرى وعدم المحابات لاى واحد كيف ما كانت قيمته · وآية ذلك انه لم يتلبس من هاته الدنيا الا بما لا بد منه واذا عرف بأحد كيف ما كان فلا يذكر له الا الاوصاف الظاهرة التى يمكن ادراكها لجميع الناس وذلك مثل الحافظ والعالم والفقيه · ويمتنع امتناعا كليا عن الاوصاف التى تقابلها والتى لا تصل اليها الافهام وذلك مثل القطب والغوث والعارف وامثالها · هذا الرجل الذى ارينا كه من خلال ترجمته المعروفة عند المؤرخين (2) هو الذى كتب فى كتابه بذل المناصحة فى فعل المصافحة يقول فى ابن طاهر : فهارس سيدى عبد الله محيطة اسانيده الكثيرة وكفيلة بالاحاطة بعلم هذه الامة · وقال فيه ايضا سيدى عبد الله من كبار الشرفاء وعظماء العلماء · كان ثاقب زمانه فى حفظ ايام الصحابة وانساب العرب وسير السلف الصالح « وكان ذا » بصيرة بالمذاهب السنية والابتداعية ولسان الانتقاد على الفرق الباغية (3) ·

اما خاتمة المحدثين بالمغرب الشيخ محمد بن سعيد (1007 — 1089) المرغتى السوسى (4) صاحب المقنع فقد ترجم لشيخه ابن طاهر ضمن اجازته لبنى ناصر ترجمة طويلة النفس طافحة بالثناء العاطر ضواعة بالمحبة والاخلاص متدفقة بالاجلال والتقدير الذى لا يدع مجالا للشك فى تزكية صاحب الترجمة · ولطولها سنكتفى منها ببعض الفقرات قال فيها : « هو سيدى ومولاى ومحياى ، ومعتمدى وسمط عيانى ، خاتمة الحفاظ بالمغرب الاقصى وراوية الرواة الذى جمع فأحصى ، المحدث الفقيه ، والاستاذ النبيه ، المفسر المحقق ، والمؤرخ المدقق ، النحوى اللغوى ، الاصولى البيانى العالم العلامة البارع الفهامة ، الزاهد الورع ، والسنى المتبع ، الناصح ، الولى الصالح ، التقى النسيب، النجيب اللبيب ذو النسب الشريف ، والحسب المنيف ، الحبر الباهر ، والبحر الزاخر ذو العلم الشامخ ، والفضل الباذخ ، والقدر الشامخ ، سيدى ومولاى عبد الله بن سيدى ومولاى على بن سيدى ومولاى طاهر بن سيدى ومولاى الحسن بن سيدى ومولاى يوسف بن سيدى ومولاى على الشريف الحسنى السجلماسى قرات عليه قدس الله روحه، واوجب له اعلا الفردوس وبحبوحه ، ختمة من القرآن براوية نافع وابن كثير · بطريقتى قالون وورش فى الاولى ، والبزى وقنبل فى الثانية واجازنى رحمه الله فى ذلك · وسمعت عليه ربع صحيح البخارى بقراءة ابنه الحجة المحقق ابى محمد سيدى عبد الهادى · وسمعت منه كثيرا من

---

(1) فهرس الفهارس ج 1 ص 353 ·
(2) انظر ترجمته فى الصفوة والنشر وطبقات الحضيكى والاعلام للتمارجى وغير ذلك ·
(3) نشر المثانى ج 1 ص 166 وفهرس الفهارس ج 1 ص 353 وغيرهما ·
(4) انظر ترجمته فى الصفوة والنشر وطبقات الحضيكى والاعلام وغير ذلك ·

سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم · وكثيرا من التاريخ والفقه وعلوم الحديث وعلوم القرآن والرسم وغير ذلك من النحو والبيان واللغة وتفسير القرآن والناسخ والمنسوخ والغريب والتاويل وسبب النزول والاعراب والتصريف والتصوف والاشارات وغير ذلك مما يطول ذكره وحدثنى رحمه الله تعالى بذلك كله واباح لى روايته عنه · ورواية ما رواه عن شيوخه · وما وضعه من التاليف والفوائد فى كل علم · نظما ونثرا · وكان ذلك عام سبعة وثلاثين والف 1037 بجبل تاغيا من بلاد مدغرة ايام محنة شرفاء سجلماسة وكتب لى بخطه رحمه الله تعالى .. (5) بعد هاته الفقرة المشرقة التى دبجها يراع المرغتى تابع كلامه فى سرد شيوخ أستاذه وسرد اسانيده الحديثة التى ترتقى الى ابن غازى العثمانى وابن حجر العسقلانى والامام ابى عبد الله البخارى · واسانيده الى هذا الاخير كثيرة اعلاها ما يرويه عن الفكيكى وخروف التونسى عن قاضى القضاة كمال الدين الطويل القادرى عن شهاب الدين عن ابن ابى المجد عن انحجار (6) عن ابن الزبير عن ابى الوقت (7) عن الداودى عن ابن حموية السرخسى عن ابن مطر (8) عن الامام أبى عبد الله البخارى (9) وقد نوه جماعة من العلماء بهذا السند العالى الذى هو اعلى سند فى الدنيا بأجمعها · وكثر افتخارهم بالانتماء اليه والتعلق باذياله · وذلك مثل المرغتى واليوسى وصاحب فهرس الفهارس وغير هؤلاء (10) · واما الاديب العلامة المؤرخ السيد محمد الصغير بن محمد بن عبد الله اليفرنى المتوفى سنة 1140 فقد بلغ من اعتنائه بصاحب الترجمة ان افتتح به كتاب صفوة من انتشر مع أن ترجمته بحسب الترتيب الزمانى لا يكون محلها الا فى اواسط القرن الحادى عشر وعلل ذلك بقوله وانما بدات به لانه جمع بين الشرف والعلم والولاية · وسماه بشريف العلماء وعالم الشرفاء · واسترسل فى هاته الترجمة التى تقطر ثناء وتزكية واكبارا وتفوح ثقة وامانة وضبطا · الى أن قال وكان صاحب الترجمة آية الله فى حفظ السير النبوية والتنقيب على اخبار الصحابة · واحوال السلف الصالح ، يوشح مجالسه بذلك · فكان لمجلسه بذلك حلاوة عند الخاص والعام · وله اعتناء بتفسير القرآن ..

---

(5) قد اختفى اسم تاغيا من هاته الناحية فى هذا العصر واللفظ علم بربرى يراد به المضيق او ما يسمى ببلاد الخنق بالقاف المعقودة · وقد كان لابن طاهر اتصال متين بهاته المقاطعة التى تشرف على بلاد مدغرة · كما يستفاد من الاحداث التاريخية والاساطير الشعبية ·

(6) هو الحافظ مسند الدنيا شهاب الدين احمد بن ابى طالب بن نعمة الصالحى الدمشقى الحجارى المعروف بابن شحنة قد عمر طويلا كما يقول السخاوى لانه سمع صحيح البخارى عن ابن الزبير سنة 630 هـ واسمعه هو كذلك فى سنة 730 وحدث يوم موته وله مائة وبضع سنين توفى سنة 733 .. الضوء اللامع ومرآة الجنان ·

(7) هو مسند الدنيا ابو الوقت عبد الاول بن عيسى بن شعيب السجزى الزاهد كان مكثرا فى الحديث عالى الاسناد طالت مدته حتى الحق الاصاغر بالاكابر سمع صحيح البخارى من الشيخ جمال الاسلام عبد الرحمن بن محمد بن مظفر الداودى سنة 465 وقد كان الداودى سمعه من الشيخ محمد بن عبد الله بن احمد بن حموية السرخسى سنة 381 وقد كان السرخسى سمعه من الشيخ محمد بن يوسف ابن مطر الفريرى سنة 316 وقد كان الفربرى سمعه من مؤلفه مرتين سنتى 248 — 252 وكانت وفاة ابى الوقت 553 وصلى عليه الشيخ عبد القادر الجيلى « وفيات الاعيان ومرآة الجنان » ·

(8) اسمه محمد بن يوسف بن صالح بن بشر الفربرى راوية البخارى وآخر من روى عنه الصحيح رحل اليه الناس وسمعوه منه · ولادته 231 ووفاته 320 ·

(9) فتح الملك الناصر فى اجازات بنى ناصر لمحمد بن موسى بن محمد بن ناصر مخطوط خاص اشار اليه صاحب فهرس الفهارس ج 1 ص 418 ·

(10) المصدر السابق ج 1 ص 419 ·

ويعتنى بمناسبة السور والآيات · يقطع جل اوقاته فى ذلك (11) ·

وقد اعتمد كثير من المؤرخين والنسابين على صاحب الترجمة فى النقل والرواية · وذكروه فى كتبهم مقرونا بما يفيد الحفظ والضبط والاتقان وسائر اوصاف التزكية · وذلك مثل ابى حامد العربى الفاسى (12) فى مرآة المحاسن حيث قال وممن ادركناه .. واستفدنا منه وكانت بيننا وبينه الفة اكيدة الامام العلامة الاستاذ المتبحر ابو محمد عبد الله بن على طاهر بن الحسن بن يوسف بن على الشريف المذكور (13) ·

وورد ذكره كذلك عند الشيخ النسابة السيد عبد السلام بن الطيب القادرى الذى اعتمده فى مواضع من كتابه القيم الدر السنى حيث وصفه بالامام الحافظ (14) وورد ذكره كذلك فى خاتمة ابتهاج القلوب للشيخ عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى 1040 — 1096 هذا الكتاب العجيب الذى قل ان يوجد مصحوبا بهاته الخاتمة التى تآمر الحاقدون على بترها واتلافها اينما وجدت وقيل ان اخاه محمد هو الذى أمر بذلك خوفا عليه من الفتنة لانه سلك فيها مسلكا غريبا فى مراتب الاشراف ·

اما آخر من تصدى لجمع ترجمة ابن طاهر واستقصاء جوانبها واستيعاب شيوخه وتلامذته وعلومه ومؤلفاته واوصافه واخلاقه فهو العلامة الخبير والناقد البصير الشيخ محمد بن الطيب ابن عبد السلام القادرى فى كتاب نشر المثانى بنسختيه الكبرى والصغرى · فقد تصدى لتلك الشبهة الزائفة التى الصقها المغرضون بصاحب الترجمة ودحضها بالنصوص النقلية والحجج العقلية التى لا تترك مجالا للشك فى تزكيته عند كل منصف طهر الله قلبه من الامراض النفسانية فقال فى ذلك : وكان صاحب الترجمة اماما فى العلم والعمل · والدين واتباع السنة · ومن العلماء الراسخين · والائمة المحققين ، آية فى الحفظ والصدق ، والامانة والضبط ، والاتقان والتحقيق، والزهد والورع ، والاجتهاد فى العبادات ولا التفات لما يتشدق به اهل الاغراض · الفاقدون للاعراض · فقد حكوا عن محمد البيجرى المكناسى ان بعض من ينتسب للعلم كان يقول حفاظ المغرب الخ · قال المسناوى وانا اقول اعوذ بالله من ذلك ·

قال مقيده واستغفر الله من كتبه وانما كتبته للتشنيع على قائله فكيف يسلب معنى الثقة عن هاذين الامامين .. يعنى المقرى وابن طاهر واسترسل فى ذكر محاسنهما الى ان قال وقد عبر المحققون عن كل منهما بالشيخ المتبحر وشيخ الاسلام الى غير ذلك من الالفاظ الدالة على مراتب التوثيق وانتهى الى القول بأن هذا الكلام مكذوب كذبه محمد البيجرى المكناسى على من نسبه اليه وهو سيدى محمد بن ابى بكر الدلائى (967 — 1046) واستدل على ذلك بأنه وقف على كتابة الدلائى اليهما المتضمنة للتبجيل والتعظيم (15) وزاد قائلا على ان البيجرى مجهول لا يعرف له ذكر مع اهل العلم · ولم نعثر على من ذكره او سماه الا

---

(11) صفوة من انتشر ص 3 ·
(12) ترجمة فى الصفوة ص 71 وفى النشر ج 1 ص 180 ط · فاس ·
(13) مرآة المحاسن ص 136 ·
(14) الدر السنى ص 52 ·
(15) يؤيد ما قاله القادرى هنا تلك الرسالة التى أشار لها صاحب البدور الضاوية والتى ارسلها بن ابى بكر الدلائى الى المقرى وهو ببلاد المشرق يستفتيه فيها فى مسائل مختلفة فاجابه المقرى على الفور برسالة اخرى سماها اعمال الذهن والفكر فى المسائل المتنوعة الاجناس الواردة من الشيخ سيدى محمد بن ابى بكر بركة الزمان وبقية الناس · الزاوية الدلائية ص 109 ·

فى هذه المسالة فقط · ولا ذكر له لا فى تقييد ولا فى فهرسة ولا نقل ولا مؤلف مع مطالعتنا .. والكلام للقادرى لكثير من ذلك كفهرسة سيدى عبد القادر الفاسى وولديه ابى زيد وسيدى محمد · والشيخ اليوسى ولا ذكر له فى المرآة ولا فى المتع ولا فى الروضة ولا فى ازاهير البستان ولا فى الابتهاج ولا فى المقصد ولا فى الالماع ولا فى تحفة الاكابر · ولا فى الكثير من الكنانيش والمفيدات · فهذه هى الكتب التى تضمنت التعريف بطبقة الشيخ الدلائى ومن بعده لم نعثر فيها على من ذكر البيجرى سوى من نسب له هذه المقالة المكذوبة قطعا · فلا شك انه من المجهولين جهالة يرد بها الخبر عند اهل الاصطلاح النقلى .. (16) الى آخر هذا الدفاع المجيد والممتع الذى ابان فيه هذا العلامة عن مقدرته العلمية وخبرته الفنية واطلاعه الواسع وطول باعه واخلاصه الطاهر ·

لكن الجماعة التى جاءت بعد القادرى ابت الا أن تضفى على المسالة طابع الغيرة والمنافسة وتجتهد فى أن تجعلها حقا اكثر من الحقيقة وتصبغها بصبغة الوقار والهيبة وذلك بتاكيد اضافتها الى الشيخ محمد بن ابى بكر الدلائى وهو من هو فى نظرهم فانبرى فى طليعة القوم ابو الربيع سليمان الحوات المتوفى بعد 1233 هـ لتخطئة استاذه القادرى المذكور فرد عليه ردا قوى اللهجة · خاليا من اللياقة · ولم يكتف بكتابة ذلك على النسخة التى يملكها من نشر المثانى · بل سجل ذلك ايضا فى بدوره الضاوية !!! حينما ترجم للدلائى المذكور الذى يحلو له أن يشبهه بيحيى بن معين (17) · فى كونه كان يعدل ويجرح فى اهل زمانه على التعيين كيف ما كانت مراتبهم · واكد بصفة قطعية أن التقسيم هو للشيخ لا لغيره اعتمادا على ما رواه بنفسه عن طريق المسناوى شيخ والده واحد حفدة الشيخ عن المهدى الفاسى · عن البيجرى المكناسى · من ان الشيخ محمد بن ابى بكر كان يقول حفاظ المغرب فى وقتنا ثلاثة الخ ثم قال اذا عرفت هذا فكل ما قاله شيخنا العلامة محمد بن الطيب القادرى فى رد هذا التقسيم مشنعا على قائله بالتشنيع العظيم فهو خارج عن قصد قائله السابق وهو شيخ الاسلام محمد بن ابى بكر الدلائى واضاف الى ذلك قوله وانما اخفى اسمه ليلا يتوجه اليه فى حقه الملام .. الى ان قال وما نقله عن المسناوى من كونه تعوذ بالله عند سماع المقالة يكاد يكون فى حكم الاستحالة · كيف وقد نقلتها يقول الحوات — من خطه مسندة برواية هى مسندة عنده · ولا تعوذ فيها من شيء ولا تعرض لها برد (18) ·

وهكذا يتوجه الحوات الى استاذه بهاته القوارص واللذعات التى ان دلت على شيء فانما تدل على انها تهمة خطيرة وقذف شنيع موجه الى من ظل يحسن اليه · ارضاء لاهل الزاوية احياء كانوا او امواتا · فالسابقون منهم واللاحقون فى بدوره الضاوية — كلهم علماء ثقاة صلحاء هداة مبراون من الاغراض والشهوات ومن الاخطاء والنزعات التى يقع فيها ابناء البشر عن قصد او عن غير قصد ·

اما نحن فسوف لا نقف من هذا النقل الذى « اقتنصه » الحوات موقف الشك او موقف اليقين فالمسناوى يمكن أن يكون عند سماع التقسيم فى

---

(16) من نشر المثانى مخطوط

(17) هو ابو زكرياء يحيى بن معين المرى البغدادى الحافظ صاحب الجرح والتعديل اخذ عن كبار الائمة كالبخارى ومسلم وابى داود وكانت بينه وبين ابن حنبل صحبة اكيدة ومنافرة فى بعض الاحيان وهو القائل فيه كل حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث وقال فيه مرة اخرى اكره الكتابة عمن اجاب فى المحنة كيحيى والتمار وامثالهما 158 — 233 ·

(18) فهرس الفهارس ج 1 ص 296 وما بعدها ·

وضعية تقتضى التعوذ فتعوذ كما يمكن أن يكون مرة اخرى فى وضعية تقتضى تسجيل ذلك فسجله بارتياح · ولكى لا نذهب بعيدا عن رواية الحوات نرى أن مسالة الحفاظ الثلاثة ولدت فى الظلام ودرجت فى مهد الحذر والاستحياء وعاشت فى الخفاء مدة ليست بالقصيرة قبل أن تتسلل صدفة الى كتب التاريخ فقد تناجى بها الشيخ الدلائى مع محمد البيجرى المكناسى · واسرها هذا بدوره فى اذن المهدى الفاسى · وادلى بها هذا الى المسناوى الذى قيدها بخطه · حسب رواية الحوات او الذى تعوذ منها حسب رواية القادرى · وعلى كل حال فهذا النقل الشفوى الطويل الذى حملت على متنه يعرضها بطبيعة الحال الى الاصلاح والزيادة والنقصان والتغيير والتبديل وسائر انواع « الرتوش » شأنها فى ذلك شأن الامور التى تنقل بطريق الرواية الشفوية ·

واخيرا جاء صاحب فهرس الفهارس (19) وعزف نغمة ثقيلة تنسجم مع لحن الحوات اكد فيها ان هذا الاعتراض الحواتى نقله عنه جماعة من اعلام عصره ومن بعده واقروه · ثم ذكر اسماءهم وادرج فى طليعة قائمتهم أبا القاسم الزيانى ولقبه بمؤرخ الدولة العلوية لحاجة فى نفس يعقوب · ونحن اذا تخطينا النظر فى الاعتبارات الخاصة التى دفعته الى هذا النقل نجده انما يتعاطف مع من سبقه الى نقل كلام الحوات فقط · وتلقيب صاحب فهرس الفهارس للزيانى بمؤرخ الدولة فى موضوع كهذا يحمل معنى غير واضح ، تنقصه لهجة الامانة· اضف الى ذلك كله أن نقل الزيانى او غيره للاعتراض الحواتى لا يستلزم صحته · ولا يزيد فى وزنه مثقال ذرة من خردل ما دام غير وجيه فى اصله ·

وبعد الزيانى جاء ذكر شخصية اخرى نقلت اعتراض الحوات وهذه الشخصية هى العلامة احمد بن عبد السلام بنانى الذى يمكن أن يكون هو الذى اثار انتباه الزيانى الى هذا الاعتراض حسبما هو مسطر فى الترجمانة الكبرى (20) وذلك باطلاعه على كتابه المسمى تحلية الآذان والمسامع بنصرة الشيخ بن زكرى الجامع هذا الكتاب وضع اصلا وبالذات للرد على هيئة معينة فى مدينة فاس كان يتزعمها ويشد ازرها بعض قادة الفكر من بين القادريين والفاسيين واشياعهم ممن كانوا يهاجمون طائفة اخرى تسمى بالبلديين او المهاجرين ومن بين رجالات الهيئة الاولى صاحب النشر الذى اعترض عليه الحوات والذى عالج ترجمة الشيخ ابن زكرى فى نشره بكيفية تنم عن التحقير للطائفة الثانية والغض من قيمتها لهذا كله رحب الشيخ بنانى بالاعتراض الحواتى ليعزز به دفاعه (21) ·

وفى النهاية بذل صاحب فهرس الفهارس مجهودا جبارا لكى يجعل من محمد البيجرى المكناسى الذى وضع هذا التقسيم على راى القادرى او الذى رواه حسب راى الحوات — شخصية لامعة غير خافتة معروفة غير مجهولة · فنوه بأسرته وبما فيها من علماء وادباء وقضاة وعدول بيد أن هذه المجهودات المبذولة لم تزد صاحبه الا جهالة وغموضا ، علما بأن التعريف بالعائلة هو غير التعريف بأحد افرادها ·

اما راينا فى مسالة الحفاظ الثلاثة التى شغل الناس بها نفسهم مدة من الزمان فان الواضع لها لا يهمنا بقدر ما تهمنا قيمة كلامه فى سوق النقد والانتقاد · وذلك لا يتأتى الا بدراسة تفصيلية لمسالة التعديل والتجريح ومعرفة القواعد التى قعدها ارباب هذه الصناعة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة ·

---

(19) فهرس الفهارس ج 1 ص 297 الى ص 300 ·
(20) الترجمانة الكبرى ص 357 ·
(21) نشر المثانى ج 2 ص 220 الى 235 ط · فاس ·

تقول تقاريرهم المقتبسة من كتبهم — وذلك مثل جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر النمرى القرطبى من اهل القرن السادس الهجرى (22) وطبقات الشافعية الكبرى للتاج بن التقى السبكى من اهل القرن الثامن (23) ان من ثبتت امانته ، وتحققت عدالته ، ورسخت معارفه ، وظهر فضله، وسما قدره ، وكثر مادحوه ، وقل ذاموه ، وندر جارحوه ، وكانت هناك قرينة تدل على سبب الجرح الذى رمى به · من تعصب مذهبى · او عنصرية عرقية او منافسة دنياوية ، او ما يماثل ذلك · فان الجرح لا يؤثر فيه اطلاقا · فلا يعبأ فيه بطعن طاعن ولا بلمز لامز ولا بقدح قادح ولا بقول قائل لا برهان له · والا لو فتح هذا الباب على مصراعيه لكل من هب ودب لكى يقول ما شاء فيمن شاء لما سلم احد من الائمة الكبار فضلا عن غيرهم ذلك انه ما من امام الا وقد طعن فيه طاعنون وهلك فيه هالكون وقد عقد ابن عبد البر بابا لحكم قول العلماء بعضهم فى بعض افتتحه بحديث الزبير رضى الله عنه دب اليكم داء الامم قبلكم الحسد والبغضاء ثم شرع فى ذكر جماعة من النظراء وقول بعضهم فى بعض وعدم الالتفات الى شىء من ذلك حتى انتهى الى كلام يحيى بن معين فى محمد بن ادريس الشافعى الذى قال فيه انه ليس بثقة (24) قال ابن عبد البر انه مما عيب به على ابن معين · وعلق عليه بقول احمد بن حنبل فيه : من اين يعرف ابن معين الشافعى · وهو لا يعرف الشافعى · ولا يعرف ما يقوله الشافعى · ومن جهل شيئا عاداه · وقال التاج بن التقى السبكى قد كان فى بكاء ابن معين على اجابته المامون الى القول بخلق القرآن وتحسره على ما فرط منه · ما ينبغى ان يكون شاغلا له عن التعرض الى الامام الشافعى امام الائمة وابن عم المصطفى صلى الله عليه وسلم (25) ثم ذكر ابن عبد البر جماعة من الذين تكلموا فى مالك ابن انس وعابوا اشياء من مذهبه · وقد براه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها · واشار الى ان الناس تكلموا فى الامام ابى حنيفة النعمان وغيره وختم ذلك قائلا فمن اراد قبول قول العلماء الثقاة بعضهم فى بعض فليقبل قول الصحابة بعضهم فى بعض فان فعل ذلك فقد ضل ضلالا بعيدا وخسر خسرانا مبينا · وان لم يفعل فليقف عند ما شرطناه فى ان لا يقبل فى صحيح العدالة المعلوم بالعلم عنايته قول قائل لا برهان له به ·

ثم ان الجرح والتعديل هو مثل النقد البناء شىء ضرورى لا محيد عنه بيد انه لا بد فيه من ان يكون خاضعا لمقاييس ومعايير تضبط سيره وتحدد اتجاهه من جملتها ان يكون المجرح برئا من البغضاء والشحناء والتعصب المذهبى · وان يرتفع فوق مستوى الخلافات بين المذاهب الاعتقادية والميول العاطفية والطائفية · وان يكون عارفا بمدلولات

---

(22) ج 2 — من صحيفة 184 الى 200 ·
(23) ج 1 — من صحيفة 187 الى 198 ·
(24) نفس المصدر ج 5 ص 220 ·
(25) نفس المصدر ج 1 ص 189 ·

الالفاظ اللغوية والمعانى العرفية ملاحظا تغيرها بحسب الزمان والمكان وان يكون عارفا فى مثل هاته الحالة بالاحكام الشرعية · فرب جاهل او متزمت ظن الحلال حراما فجرح به · ومن هنا كان لا بد من البيان والايضاح والتفسير واقامة الدليل والبرهان فى تجريح من ثبتت عدالته (26) ·

ومجمل القول فى مسألة تقسيم الحفاظ الثلاثة انها لم تعرف معرفة اكيدة وواضحة فى عصر صاحب الترجمة فلم يرد لها ذكر عند تلاميذه او تلاميذ تلاميذه ومن عاصرهم من المؤرخين المعتنين بتسجيل الاحداث فى وقتها الى ان جاء محمد البيجرى المكناسى الذى لا تعرف له ترجمة صحيحة فادعى انه سمعها من الشيخ الدلائى ومنه اتخذت طريقها الى المهدى الفاسى ومن هذا الى الشيخ المسناوى الذى قال القادرى انه تعوذ منها · او الذى قال الحوات انه نقلها من خطه · وسواء كان القائل لها هو البيجرى او الدلائى فلا تكون مقبولة ولا ذات قيمة جديرة بالوقوف عندها الا اذا توفرت على العناصر التى ذكرناها آنفا · قال ابن عبد البر والدليل على انه لا يقبل فيمن اتخذه جمهور من جماهير المسلمين اماما فى الدين قول احد من الطاعنين أن السلف رضوان الله عليهم قد سبق من بعضهم فى بعض كلام كثير فى حال الغضب ومنه ما حمل على الحسد (27) وقال الحافظ الذهبى ليس كل كلام وقع فى حافظ كبير لوثة فيه (28) ورحم الله الفقهاء الذين قالوا اذا بلغ الماء قلتين فانه لا يحمل خبثا ·

للبحث صلة

---

(26) نفس المصدر ج 1 ص 194 ·

(27) جامع بيان العلم وفضله ج 2 ص 196 ·

(28) ميزان الاعتدال ج 3 ص 304 ·